مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 08 العدد 01 جانفي 2025 ص ص 18ـ48
ر س ع و (ISSN): 2602ـX618 / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

الهجرة الهلالية وإشكالية التراجع الحضاري للمغرب الأوسط الحمادي "قراءة نقدية في حقيقة مخلفاتها التدميرية"

The Migration of Banu Hilal and the Issue of Civilizational Decline in the Central Maghreb under the Hammadids: A Critical Analysis of Its Destructive Legacy

البشير بوقاعدة♦

المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة ، الجزائر bougaadabachir@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2024/05/23 تاريخ القبول: 2024/06/27 تاريخ النشر: 2025/01/31

الملخص باللغة العربية: تتوخّى هذه الورقة البحثية بالدراسة والنقد والتقصي ، اشكالية مفرزات الهجرة الهلالية على البنية الحضارية المغرب أوسطية خلال العهد الحمادي ، حيث يحاول صاحبها قياس حجم الأثر الذي خلفته على مكونات الحياة الحضارية الحمادية ، ومعاينة مستويات حدّته على نسيجها. كما تروم التوقف عند طبيعة ذلك التدمير ومناقشة حقيقته ، وبذل قصارى الجهد للفصل في مسألة الجدل الملحوظ بشأن انعكاساتها على مسار النمو الحضاري لبلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 5-6هـ / 11-12م ؛ بين من عدّها بحجم الكارثة التي لم يشهد المغرب الوسيط لها نظير ، وبين من اعتبر أثرها لا يتباين عن حجم الأضرار التي تخلّفها أي حرب دارت بين خصمين سياسيين متنازعين. كما يسعى صاحبها لرصد مسار النمو الحضاري لمدن المغرب الأوسط قبل الهجرة وبعدها لتحديد حجم الضرر وقياس مستويات التأثير على مستقبلها ومصيرها.

الكلمات المفتاحية: الهجرة ؛ الهلالية ؛ المفرزات ؛ المغرب الأوسط ؛ الحضارية.

Abstract:

This research paper aims to study, critique, and investigate the repercussions of the Banu Hilal migration on the civilizational structure of the medieval Maghreb during the Hammadid era. The author endeavors to measure the extent of its impact on the Hammadid cultural components and examine the intensity of its effects on their tapestry. Furthermore, the paper

♦المؤلف المرسل

seeks to explore the nature of this destruction, discuss its reality, and strive to resolve the notable debate regarding its implications on the trajectory of civilizational growth in the Central Maghreb during the 5th-6th centuries AH / 11th-12th centuries AD. This debate ranges between those who view it as a disaster unparalleled in the medieval Maghreb and those who believe its impact is comparable to the damage typically caused by any conflict between rival political factions. Additionally, the author aims to trace the trajectory of civilizational growth in medieval Maghreb cities before and after the migration to ascertain the extent of the damage and measure its influence on their future and fate.

Keywords: immigration; lunate; secretions; Central Morocco; Civilized**.**

مقدمة: من القضايا التي لا تزال تستقطب اهتمام الباحثين وتستنجد بأقلامهم على الرغم مما حظيت به من اهتمام ومفاحصة من لدن شريحة عريضة منهم ، مسألة مفرزات الهجرة الهلالية على البنية الحضارية المغرب أوسطية خلال العهد الحمادي ، وحجم الأثر الذي خلفته على مكوناتها. ففي الوقت الذي عكفت دراسات على معاينة حجم ذلك الضرر وقياس مستواه على كاهل منهج حصيف ينشد الحقيقة التاريخية مهما اختلف لون ثوبها الذي وُجدت عليه ، بعيدا عن الذاتية وليّ أعناق النصوص وتحميلها ما لا طاقة لها به ، آثرت أخرى إلباسها ثوبا على غير مقاسها ؛ بلونٍ يُرضي مطالبها ويستقيم وما تنشده. وبين هذا وذاك ، يظل التوفيق بين الرأيين ومباحثة مواطن الصواب ومساحات نقيضه ضمن جسم مادتهما ديدن أيّ بحاثة رام تحمّل مشاق الطريق إلى ذلك ، وتسلّح بالمادة الخبرية الكافية لإنارة سبيله وبمنهج علمي يُذلل الصعاب أمامه ، باعتباره يطارح اشكالية تبدو في ظاهرها قُتلت بحثا ، لكن حقيقة الأمر ، أنّ بعض اشكالاتها لا تزال بكرا تغازل أقلام أهل البحث لإحياء مواتها ، وأنّ العديد من وجهات النظر تسترعي المراجعة وإعادة النظر في مسائلها وتقليبه فيها بما يكفي حتى تستجلى أعمق خباياها ، وتستنطق رواياتها بشكل أقوى وعلى صورة أفضل.

على ضوء الطرح السالف ، تتوخّى هذه الورقة البحثية ، معاينة حجم الضرر الذي ألحقته الهجرة العربية الهلالية على مكونات الحياة الحضارية الحمادية ، وقياس مستويات حدّته على نسيجها ، وكذا التوقف عند طبيعة ذلك التدمير ومناقشة حقيقته ، بالإضافة إلى محاولة الفصل في مسألة الجدل بشأن انعكاساتها على مسار النمو الحضاري لبلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 5-6هـ/ 11-12م ، خصوصا وأنّ هناك من أهل البحث وحتى من أصحاب التصنيف المصدري من عدّ مفرزات تلك الهجرة بحجم الكارثة التي لم

يشهد المغرب الوسيط لها نظير ، في الوقت الذي اعتبر البعض الآخر بأنّ أثارها لا يتباين عن حجم الأضرار التي تخلّفها أي حرب دارت بين سلطتين متنازعتين. كما يحاول صاحب الدراسة إلى صف ذلك ، التوقف عند مسار النمو الحضاري لمدن المغرب الأوسط قبل الهجرة وبعدها لتحديد حجم الضرر ومستويات التأثير على مستقبلها ومصيرها.

ومن الأسئلة التي توسّع من حدود دائرة وضوح الاشكالية الرئيسة: إلى أيّ حدّ تركت الهجرة الهلالية بصمة سيئة على نسيج المقومات الحضارية الحمادية؟ وما مدى تطابق الرواية التي احتفظت بخبر آثار هذه الهجرة على مكونات النسيج الحضاري الحمادي ومستوى حدّته بين ما أوردته كتب الحوليات وما جادت به المصنفات الجغرافية؟ ما طبيعة القرائن التاريخية التي استند إليها الرأي الذي اعتبر حادثة الهجرة كارثة فريدة من نوعها عصرئذ وفي طليعتها الرأي الاستشراقي؟

1. هجرة عرب بني هلال إلى المغرب ، أيّ مطلب؟

لسنا نروم على ضوء معالجة اشكالية انتقال العرب الهلالية إلى بساط المغرب تحديد طبيعة الأسباب التي كانت وراءها لذاتها وإنّما ننشد الوقوف على طبيعة السبب لنستقرأ نتيجته على ضوئه ؛ ذلك أنّ له كلمته المحورية في مناقشتها. وحتى نلامس غرضنا من ذلك ، نحاول الاجابة على السؤال الموالي: هل انتقال العرب الهلالية إلى المغرب كان هجرة إرادية أم بإيعاز سلطوي من بلاط القاهرة الفاطمي؟ وإذا كان بإيعاز سلطوي فهل سعت من ورائه لتخليص بلادها من آذاها أم سلوكا انتقاميا من القيادة المغربية على قطعها خيط التبعية الاسمية لبلاط القاهرة؟ لقد أثارت هذه الاشكالية جدلا كبيرا بين أهل البحث ، وأسالت حبرا غزيرا في مناقشتها ، ولعلّ من أبرز ما يستوقفنا عنده:

1.1 القطيعة الزيرية والانتقال الهلالي:

شكّل القول بأنّ قطع المعز بن باديس **(406-454هـ/1016-1062م)** صلته بالبلاط الفاطمي هو عمدة الأسباب التي دفعت بقادته إلى الايعاز للعرب الهلالية[1]

1- هم قبائل بدوية من عرب مضر ، كانت تجول صحراء الحجاز ، ثمّ استقرّوا قرب الطائف ، وكانوا يطوفون رحلة الشتاء والصيف أطراف العراق والشام ، يغيرون هناك على الضواحي والنواحي ، ويفسدون السابلة ويقطعون على الرفاق. ومن أشهر بطونها: زغبة ، ربيعة ، والأثبج وهم أكثرها عددا وأوفرها بطونا ومنهم: الضحاك ، عياض ، مقدم ، دريد وكرفة. ابن خلدون عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ج6 ، ضبطه خليل شحادة ، راجعه سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1421هـ/ 2000م ، ص30-54 ، القلقشندي أحمد ، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، تح إبراهيم الأبياري ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1400هـ/1980م ، ص272 ، كحالة عمر ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ج2 ، ط8 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1997م ، ص 420.

والسليمية[2] بالانتقال إلى البساط المغربي ، الرأي الأكثر شيوعا ضمن نسيج المقاربات البحثية التي شيّد أصحابُها بناءَها في سبيل تعليل ذلك الانتقال وملامسة الرأي الأرجح. وهو الرأي الذي ينطلق من أساس أنّ هذا الانتقال كان سياسة عقابية انتهجتها السلطة الفاطمية لتأديب القيادة الزيرية (الباديسية) على فعل القطيعة ، وأداةً عبّرت بواسطتها عن انتقامها منها على صنيع الانفصال.

وممّا يُقوّي هذا الطرح ويشد من عضد رأي أصحابه ، أنّ هذه الهجرة الهلالية تزامنت وفترة إعلان المعز بن باديس انفصاله عن الخلافة الفاطمية بمصر ، حيث أقدم المعز على إعلان قطيعته بشكل صريح حين دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (ت467هـ/1074م) وصرفها عن الفواطم سنة 440هـ/1048م[3]. مع ضرورة الاشارة إلى أنّ الحماديين أعلنوا قطيعتهم عن فواطم القاهرة فور انفصالهم عن جسم الكيان الصنهاجي الأمّ على يد حماد بن بلكين (408-419هـ/1017-1028م) سنة 406هـ/1015م[4] ، أيّ أنّها كانت في فترة متقدمة عن القطيعة الزيرية (الباديسية)، وقد شاب مسار هذه القطيعة الحمادية نوع من التذبذب ، ذلك أنّ ابنه القائد (419-446هـ/1028-1054م) كان يراجع طاعة الفواطم حينا وينقضها طورا بحسب مصلحته السياسية تأمينا لاستقلالية دولته عن بني باديس الزيري ، لكن هذا الانفصال الحمادي لم يُثر بشأنه أي لغط ولم تأبه له القيادة الفاطمية بالقاهرة ، فهل كانت تعتقده خروجا على الشرعية الزيرية (الباديسية) ومسألة داخلية يتولاها بناء باديس الزيري بأنفسهم ؟

كما شكّلت اللهجة الشديدة التي خاطب بها المعز بن باديس وزير الفواطم اليازوري حين راسله مخاطبا إياه بألفاظ تسيء لشخصه ، الشرارة التي أشعلت نار

2- بنو سليم هم أيضا إحدى البطون العربية من مضر ، ويكون نسبهم حسب ابن خلدون إلى بني سليم بن منصور ، بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر. كانوا لا يختلفون في طباعهم عن قبائل بني هلال. ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 18.

3- ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج1، تح ، كولان وإ. ليقي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ط3، 1983 ، ص278 ، بن أبي دينار محمد ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تح ، محمد شمام ، المكتبة العتيقة ، تونس ، ص83 ، ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، تح ، ممدوح حسن ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، ص274 ، روجي ادريس ، الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م)، ج1، ترجمة ، حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1992 ، ص230 ، بكوش فافة ، الهجرة الهلالية ببلاد المغرب الاسلامي خلال القرن 5هـ/11م ، مجلة القرطاس ، ع7 ، تلمسان ، 2018 ، ص63.

4- شبيرة شميسة ، التحولات الاجتماعية في المغرب الأوسط في القرن 5هـ/11م ، مجلة القرطاس ، ع5، 2017 ، جامعة تلمسان ، ص85.

الاختلاف بين القيادتين المغربية والفاطمية والمنعرج الحاسم في تغيّر موقف البلاط من سياسة حكام المغرب ، حيث تطلعنا المظان بأنّ الوزير الفاطمي استاء كثيرا من لهجة المعز وحقد عليه حقدا شديدا ، وأرسل إليه يتهدّده ويتوعّده بسوء منقلبه إن لم يرجع عن قطيعته ويعتذر عن سوء أدبه. وأخذ يبحث في سبيل للانتقام حتى اهتدى إلى رأي يقضي بدفع قبائل بني هلال وسليم للانتقال إلى أرض المغرب[5]. وبعدما تمكّن من اقناع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله بفكرته واستقرّ الرأي على دفع العرب إلى المغرب ، سمح لهم الخليفة بإجازة النيل بعدما كان غير مسموح لهم فيما مضى ، وخاطبهم قائلا: **"أعطيتكم المغرب وما يملكه المعز بن باديس الصنهاجي العبد الآبق فلا تفتقرون"**[6]. في دعوة صريحة منه لإطلاق أيديهم دون هوادة في بلاد المغرب. وكإجراء تشجيعي للعرب حتى تحسن الامتثال لأمر الحليفة وتطمئن لرغبته وتهون مشاق الاجتياز أمامهم ، منحوا كلّ واحد منهم دينارا وبعيرا وأغدقوا على الرؤساء بالعطايا والأفراد بالهدايا ، فأجازت العرب نهر النيل تروم بلاد المغرب وهي تحمل رسالة الوزير الفاطمي إلى غريمه المعز بلهجة مستفزة تهديدية ؛ حيث يعلمه بأنّه أرسل إليه خيلا محمّلة بالرجال الشجعان لتأديبه على صنيعه[7]. وكانت برقة وما والاها أوّل أرض وطأتها أقدامهم سنة 442هـ /1050م ، حيث المراعي الخصبة ، فأقام العرب بها واستوطوها ، واستولوا على مدنها وقراها وعاثوا في أطراف البلاد فسادا وتخريبا. ولما استطابوا البلاد كتبوا إلى اخوانهم الذين مكثوا بالضفة الشرقية من النيل يستحثّونهم على اللحاق بهم[8]. ثم اقتسموا البلاد فكان لسليم المنطقة الشرقية أي برقة ، وللقبائل الهلالية الجزء الغربي أي طرابلس وما يليها غربا فاستقرّت بطون من سليم وأحلافها ببرقة ، وسارت قبائل ذياب وعوف وزغبة وغيرها من بطون هلال إلى إفريقية والمغرب[9].

5- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص277-279 ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج8 ، راجعه وصححه ، محمد يوسف الدقاق ، ط4 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1424هـ/ 2003م ، ص295 ، النويري شهاب الدين ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، ج 28 ، تح ، عبد المجيد ترحيني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص 141.

6- ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص14 ، ابن أبي دينار ، المصدر السابق ، ص 84 ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، مج8 ، ص295.

7- النويري ، المصدر السابق ، ج 28 ، ص 141.

8- مؤنس حسين ، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ، العصر الحديث للنشر والتوزيع ، لبنان ، ص602.

9- شريط عبد الله وأبو القاسم محمد كرو ، عصر القيروان ، دار المغرب العربي ، تونس ، 1973 ، ص22 ، بن زاوي طارق ، استقلال المعز بن باديس الزيري عن الدولة الفاطمية (406-454هـ/1016-1062م ، رسالة

1. 2 التهجير القسري سبيل للخلاص من إفساد العرب بالصعيد:

من الاحتمالات الواردة في مسألة أسباب الهجرة العربية إلى البساط المغربي لجوء القيادة الفاطمية بالقاهرة إلى إبعاد العرب الهلالية من أرض النيل وبلاد الصعيد بهدف تطهير المنطقة من إفسادها ، إذ بعدما أقلقها وجودهم هناك وتعاظم ضررهم وعجزت عن مدافعتهم ووضع حدّ لتجاوزاتهم وكبح جماحهم ، رأت في سبيل التهجير مخرجا آمنا لكفّ ذلك الأذى واستئصال شأفته[10]. بيد أنّ السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد: لماذا بلاد المغرب دون غيرها؟ وهل ستكون العرب أذانا صاغية لهذا المطلب؟ تفرض علينا الإجابة عن الشطر الأول البحث عن صلة هذا السبب بالذي سبقه أي بين سبب قطيعة أبناء باديس الزيري والخلاص من ضرر العرب ، وذلك أنّه بعدما رأت القيادة الفاطمية أنّها أخذت تفقد وصايتها على بلاد المغرب بشكل مطلق وعاينت موقفا جريئا من المعز الزيري لم تعهده مع سلفه ، اهتدت إلى سبيل التهجير الهلالي إلى بلاده ، تَصْرِف إليها خطر العرب انتقاما منه من جهة ، وتصرفه عن بلادها من جهة أخرى ، حين عجزت عن المنافحة عنها بالقوة. أمّا بشأن الجواب عن السؤال الثاني ، فنقول بأنّ القيادة الفاطمية لم تعمد إلى تهجير قسري على كاهل القوة بل كانت تبحث في سبل الخلاص من آذاها ببلادها ، حتى وجدت الطريق إلى ذلك فكانت العرب حينها أداةً مطواعةً. ومن هذا المنطلق ، فالتهجير القسري لا يعكس سوى رغبة السلطة وطموحها ، أمّا الواقع فلا يمكن فصل هذا السبب عن غيره من الأسباب المذكورة ، ولا يشفع بمفرده لمن اعتمده مبررا لهجرتها أو تهجيرها.

1. 3 هجرة البحث عن الكلأ:

يتبنى فريق من الباحثين الرأي القائل بأنّ هذه الهجرة العربية لا تنحصر دوافعها في كونها حركة بشرية انطلقت بدافع الانتقام وتلبية رغبة البلاط الفاطمي لمعاقبة من أشهر سلاح القطيعة في وجه رجاله ، وإنّما تتجاوزها إلى كونها تترجم رغبة جامحة في التنقل والظعن بحثا عن الكلأ والمرعى ، وتعكس صورة عن ذلك الحراك الغريزي الذي اصطبغت طبائع هذه البطون القبلية وطموحها واندفاعها بحثا عن ضالتها[11]. ومما يشفع لهذا الطرح ، أنّ النزوح الهلالي نحو بلاد المغرب لم يكن وليد سنة 442هـ/1050م حين

ماجستير ، جامعة الجزائر ، 2009م ، ص137 ، وللمزيد أنظر: SOURDEL Dominique: Histoire des arabes, cinquième édition, paris, 1994, p 75.

10- بكوش ، المرجع السابق ، ص63.

11- انظر ما أورده في هذا السياق ، العروي عبد الله ، مجمل تاريخ المغرب ، ج2 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 1994 ، ص93.

تحرّكت جموع هائلة من العرب ، وإنّما سبقتها حركة بشرية هلالية إرادية تلقائية وصلت إلى طرابلس قبل سنة 441هـ /1049م بحثا عن الكلأ ومواطن المياه تناغما وطابع حياة هذه القبيلة البدوي. بالإضافة إلى أنّ هذه القبائل كانت تضغط على السلطة الفاطمية للسماح لها بالمسير إلى المغرب بجماعاتها غير أنّ الفاطميين كانوا يمنعونهم من ذلك[12].

وهو ما يضعنا أمام صورة لرغبة جامحة من هذه العناصر القبلية لتجاوز الخطوط الفاصلة بين بلاد المشرق والمغرب بحثا عن مراعي تستجيب ومتطلبات نمطها المعيشي ، وكانت السلطة الفاطمية تحول دون طموحها في الانتقال الجماعي وتمنع حراكها نحو الغرب ، غير أنّ ذلك لم يمنع من وجود هجرات عربية في شكل مجموعات بشرية معدودة كانت تصول وتجول في المناطق الحدودية بين الاقليمين المشرقي والمغربي وقتئذ دون أن تغوص إلى أعماقه من جهة الغرب ، ونظرا لمحدودية أعدادها وعدم تأثيرها على مجرى الأحداث زمنئذ لم تحظ بعناية أهل التأريخ. أمّا حين هاجرت في جموع كبيرة بلغت زهاء نصف مليون رأس بشري[13] ، كان من الطبيعي أن لا يسعها مجال برقة أو تلك المساحة الحدودية ولا تسد حاجات طموحها ، لذلك تقدمت في بلاد المغرب وتجاوزت الحدود المعهودة.

رغم أنّ هذا لا يمنع من أن تكون السلطة الفاطمية استغلت هذه الرغبة الجامحة في الحركة غربا والطموح الكبير في الاجتياز تلبية لدوافعها الغريزية ، فأطلقت سراح جحافل الأعراب الرحل بعدما كانت تحبسهم في مجال الصعيد تنفيذا لمشروعها الانتقامي من السلطة الباديسية الزيرية التي تخلّت عن ولائها وأعلنت انفصالها وقطيعتها التامة عنها ، فتوافقت بذلك مطامح العرب الغريزية واندفاعها للحراك نحو بلاد المغرب تنشد ضالتها مع طموح الفواطم في الانتقام من قادته وتأديبهم.

صفوة القول ، إنّه وعلى ضوء مفاحصة هذه الرؤى المتباينة بشأن أسباب الهجرة الهلالية إلى أرض المغرب ، نعتقد أنّه لا يمكن حصرها في سبب دون غيره وإنّما تداخلت أسبابها وتعددّت ، وتعدّ القطيعة الزيرية أو الانفصال الصنهاجي عن التبعية الاسمية للفواطم بمصر سببا رئيسا في هجرتهم ، ذلك أنّ هذا الحراك البشري وبهذه الأعداد الهائلة ، لا يعقل أن يتم دون علم السلطة الفاطمية أو يتم بغير إذنها خاصة إذا لم نغفل

12- مؤنس ، المرجع السابق ، مج1 ، ص197-198 ، العروي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص93 ، حسن محمد ، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، ج1 ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تونس ، تونس ، 1999 ، ص30.

13- وذهب البعض الآخر إلى أنّهم بلغوا مليون رأس. انظر: طيب بوجمعة نعيمة ، الهجرة الهلالية من خلال مخطوط كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم لأبي الحسن علي بن محمد بن الخطيب القرشي ، المجلة المغاربية للمخطوطات ، ع6 ، الجزائر ، 2018 ، ص121.

عن أنّها كانت تراقب نشاط العرب بالصعيد وتمنع حركتهم نحو الغرب دون موافقتها. كما نستبعد أن تخرج العرب الهلالية بجموعها دفعة واحدة بحثا عن الكلأ تروم بلادا تجهل مصيرها فيها ولا تأمن عواقب ذلك الخروج في حال لم تلق ترحيبا من طرف القيادة المغربية صاحبة السلطة على الاقليم وقُوبلت بمقاومة عسكرية شديدة من لدنها. كما نستنتج أنّ لجوء السلطة الفاطمية إلى هذا الحل يعكس عجزها عن ردّ المعز بالقوة العسكرية.

2. بصمة العرب الهلالية في خارطة التراجع:

1.2 التعدّي الهلالي على مكونات الحياة الحضارية المغرب أوسطية:

سنركّز اهتمامنا في هذه المحطة البحثية على فحص نتائج موقعة سبيبة[14] 457هـ/1065م باعتبارها أحد الصدامات العسكرية بين العرب الهلالية والسلطة الحمادية التي أنجبت أضرارا بليغة بمكونات العمارة المغرب أوسطية ، فقد كان ذلك الصدام بمثابة الشرارة التي أشعلت فتيل نار التخريب الهلالي واتساع حدود دائرته بذلك المجال.

بخصوص أسباب هذه الموقعة تطلعنا الرواية الخلدونية بأنّ الانكسار الذي حلّ بجيش الناصر بن علناس (454-481هـ /1062-1088م) في سبيبة كان نتيجة حتمية لطموحه الجامح في توسيع نفوذه على حساب ملك أبناء العمومة بالمغرب الأدنى بمعونة العرب الهلالية التي رأى أن انقسامها على نفسها يخدم طموحه ، ذلك أنّه باشتداد الحرب بين قبيلتي رياح والأثبج طلبت الأخيرة منه إعانتها على حرب رياح وزغبة فأجابها إلى ذلك ، واستقرّ لهم الغلب ، ثم عزم الناصر على استثمار خدماتها في صالحه ضد خصومه[15]. وذهب ابن الأثير إلى اعتبار هذا الصدام حلقة من حلقات الصراع الصنهاجي الحمادي الباديسي-الزيري الذي تغوص جذوره إلى فترة الصراع بين حماد بن بلكين وابن أخيه باديس ، وصورة من صور التنافس بين السلطتين على الانفراد بحكم صنهاجة ، حيث تواصلت مظاهر الصراع بين أبناء العمومة حتىّ آلت الأمور إلى الناصر بن علناس من خلفاء حماد وإلى تميم بن المعز من أبناء باديس[16]. فالناصر الحمادي حين وقف على

14- هي مدينة تقع على الطريق بين القيروان وتبسة. البكري ، المسالك والممالك ، مج2 ، تح ، جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002م ، ص330 ، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ، تعليق ، سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية ، المغرب ، ط2 ، 1986 ، ص161.

15-ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص27 ، بورويبة رشيد ، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر ، 2007 ، ص61.

16- بعيزيق صالح ، بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية ، أطروحة دكتوراه ، جامعة تونس ، 1996 ، ص46 ، بونابي الطاهر ، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع

ما آلت إليه أمور بني باديس الزيري عقب الهجرة الهلالية من تراجع حضاري وتقهقر عسكري خصوصا بعدما دانت لسلطانه بعض مدن المغرب الأدنى كالقيروان وتونس وصفاقس ولو لفترة مؤقتة ، تنامى طموحه التوسعي للظفر بقلب بني زيري النابض زمنئذ ومركز سلطانهم مدينة المهدية ، فراح يخطط لغزوها ويعقد التحالفات مع العرب وزناتة لتقوية شوكته وتنمية قدراته العسكرية لبلوغ المراد. غير أنّ خصمه تميم بن المعز تفطّن لما يحاك حيال دولته في بلاط أبناء العمومة ، فراح هو الآخر يسعى في سبيل تحقيق نصره وإفشال مخطط خصومه ، وفي الوقت الذي كان الناصر يبرم تحالفاته ضدّ تميم كان الأخير يعيد صياغتها وسبكها وفق ما يخدمه ويهدم قوى عدوه. وبذلك عقد الناصر تحالفا صوريا في صالحه لكن حقيقته عكس ظاهره ، وخرج بجيش يضم العبيد وصنهاجة وزناتة والقبائل الهلالية المتحالفة معه كالأثبج وعدي ، في الوقت الذي ضمّ معسكر تميم قبائل بني هلال كزغبة ورياح وسليم وصنهاجة ، والتقى الجمعان بموضع سبيبة سنة 457هـ/1065م ، وسارت الأمور حسب الاتّفاق والتحالفات المبرمة لصالح تميم ، وانهزم الناصر شرّ هزيمة[17].

تتفق الرواية التاريخية بأنّ لهذا الانكسار الحمادي مضاعفات سلبية على حضارة الدولة حيث قدّر بعض المؤرخين فاتورة ضحايا صنهاجة وزناتة بأربعة وعشرين ألفا قتيل[18] ، كما نهبت العرب أمواله ومضاربه بما حوى من مال وسلاح ودواب ، وتقاسموا تلك الغنائم والأسلاب[19].

واللافت للانتباه في هذا السياق ، أنّ القبائل الهلالية على الرغم من أنّها نالت مبتغاها من وراء تحالفها ضدّ الناصر بن علناس (454-481هـ/1062-1088م) حسب الاتّفاق المبرم مع تميم بن المعز على ثلث الغنيمة بعد كسر شوكة الناصر إلاّ أنّها ما اكتفت بما حصّلت ، وإنّما راحت تلاحق الناصر الذي فرّ بعد الهزيمة إلى قسنطينة ثمّ التجأ إلى القلعة الحمادية متحصنا بها ، وهناك أدركته العرب وحاصرت قلعته[20].

الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ،1420هـ/2000م ، ص63.

17- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 299 ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، مج8 ، ص 373 ، النويري ، المصدر السابق ، ج24 ، ص 122 ، العربي إسماعيل ، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1980 ، ص 164.

18- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 299 ، النويري ، المصدر السابق ، ج24 ، ص123.

19- ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 299 ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، مج8 ، ص 373.

20- إسماعيل العربي ، دولة بني حماد ، ص 167 ، بورويبة ، الدولة الحمادية ، ص 65.

ويمدنا ابن خلدون بمادة ضافية عن تبعات هذا الحصار ومفرزاته على العمارة الحمادية ، حيث كشف بأّه وبالرغم من نجاة الناصر وإحتمائه بقسنطينة ، إلا أنّ رياح سارت في أتباعه ، حتى أدركته بالقلعة الحمادية وهناك نازلتها وخرّبت جنباتها وأحبطت عروشها ، بل وأظهرت على حدّ تعبير ابن خلدون **"في الأرض الفساد"**[21]. وعليه افتتح بنو هلال عهد التخريب والإفساد في المجال الحمادي بعد تحقيق نصرهم على عساكر الناصر ومعاينة انكسار شوكته وتحسس ضعف قوته ، ولو لا صمود القلعة بحصانتها الصناعية ومناعتها الطبيعية لنجح العرب في اقتحامها وربما كان مصيرها شبيها بما حلّ بالقيروان وأرباضها[22]. ولئن حالت أسوار القلعة المنيعة دون اقتحام العرب لها ، فإنّ أغلب بسائط المجال الحمادي باتت لا ينازع العرب حكمها أحد ، فقد أطلقوا أيديهم لنهب المزارع والحقول ونشر الخراب في القرى والأرياف وقطع السابلة على العابرين والتجار[23].

بالإضافة إلى هذه الهزة العنيفة التي تعرّضت لها القلعة الحمادية على يد القبائل الهلالية ، مدّت العرب يدها مرة أخرى لتخريب عمارة المدينة والإفساد فيها ، ولكن بعد انسلاخ مسافة زمنية معتبرة من عُمر الهزة الأولى ناهزت خمسة عقود ، حيث استغلّوا بُعد

21- ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 27.

22- فقد بناها حماد بن بلكين سنة 398هـ/1008م في سند جبل سامي العلو صعب الارتقاء وحصنها بالأسوار حتى أضحت من بين أحصن القلاع التي لا ترام علوا وشموخا ، وفي منعة عن الأعداء. انظر: ابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تح ، عبد الحليم عويس والتهامي نقرة ، الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ص 72 ، ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، مج1 ، تح ، محمد عبد الله غنان ، ط2 ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1973 ، ص432 ، عبيد بوداود ، مساهمة علماء القلعة في الحياة الفكرية ببجاية خلال القرن السابق الهجري (13م) ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، ع10 ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، 1430هـ/2009م ، ص27 ، Contribution a l'étude de la céramique musulmane , les poteries faïences de la Qal'a des Beni Hammâd (XIème siècle, Constantine, 1913, p 05.

23- عويس عبد الحليم ، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ، دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط2 ، 1991م ، ص150.

مركز القيادة الحاكمة بعد نقلها إلى بجاية[24]، وعجز الحامية المرابطة بها عن المنافحة عن البلد واكتسحوا محيط القلعة الخارجي وجميع ما صادفوه بظواهرها سنة 512هـ/1118م[25].

لم تكن القلعة الحمادية، المدينة الوحيدة التي امتدت إليها يد التخريب ومظاهر الافساد الهلالي، بل توسّع نشاطهم التخريبي ليطال مجال كل من مدينة المسيلة وطبنة، وحتى مدينة وارجلان حسبما تفضل به بعض المؤرّخين. ومع أنّ النص المصدري لا يسعفنا بما فيه الكفاية لتحديد أقصى توسّع بلغه العرب نحو الغرب ضمن المجال الحمادي قبل موقعة سبيبة، فإنّنا لا نستبعد توغّلها في البسائط الجنوبية من القلعة وأرياف بلاد الزاب وبواديه، بعدما تمكّنت في عهد الأمير الحمادي بلكين بن محمد (447-454هـ/1055-1062م) من كسر شوكة زناتة وأرغمتها على التراجع إلى الصحراء والملاذ بها[26]، غير أنّ تدفّقها بقوة غربا وجنوبا كان عقب هزيمة سبيبة وانحصار السلطة الحمادية إلى حدّ ما بالمساحة الشمالية من مجال المغرب الأوسط.

ولئن كانت يد العرب قبل موقعة سبيبة ممسوكة عن الاضرار بالمنطقة فإنّها قد أطلقتها بعدها في مناطق واسعة من أرض المغرب الأوسط بما في ذلك المجال الطبني والمسيلي تعيث فسادا وتخريبا. وهو ما لمسناه في ضوء الرواية الخلدونية الكاشفة لحجم الضرر الذي طال عمارة المجال الحمادي وأثّر سلبا على حضارة المنطقة بعد تلك الموقعة[27].

كما يدعمنا الادريسي[28] بمادة هامة تحيلنا على جانب من مخلفات الانتشار الهلالي بمنطقة المغرب الأوسط، وذلك حين يطرق تفاصيل الضرر الذي ألحقوه بالحصون الواقعة على الطريق بين بجاية والقلعة مرورا بوادي الملح وحصن الناضور وسوق

Georges, Algérie Médiévale monuments et paysages historiques, arts et MARÇAIS-24 métier graphiques, Paris, p 41, LUDWIG Salvadore Von Habsburg- Toskana , Bougie perle l'Afrique do nord, traduit de l'allemand par, AhcéneAbdelfettah, CNRPAH, Alger, 2005, p 35, GSELL. S – MARÇAIS.G -CYVER : Histoire d'Algérie, Paris, 1929, p 124-125.

25- ابن خلدون، العبر، ج6، ص 234-235.

26- ابن خلدون، العبر، ج6، ص27، مؤنس، تاريخ المغرب، مج1، ص622، إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ص146.

27- ابن خلدون، العبر، ج6، ص27.

28- الإدريسي الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص263، أبو ضيف مصطفى أحمد عمر، القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص64.

الخميس وسوق الاثنين ، ويطلعنا على خريطة المخلفات السيئة على حضارة المجال المذكور وبنيتها السكانية والاقتصادية.

حصيلة القول ، أنّ لطموح الناصر بن علناس في توسيع سلطانه ومدّ نفوذه نحو الشرق على حساب أبناء العمومة ضلع واسع في ما حلّ ببلاده من ضرر هلالي ، ففي الوقت الذي رام التحالف مع العرب لضرب غريمه بالمهدية انقلبت خطّته عليه وجنى على نفسه بما خطّط له ، وكان يجدر به أن يرمم علاقته مع أبناء العمومة من بني زيري الباديسي ، ويجبر كسرها مع العناصر الزناتية لتلافي ضرر العرب الهلالية والسيطرة على نشاطها في الاقليم والتحكم في حركتها ضمنه.

2.2 انعكاسات النشاط التخريبي الهلالي على حضارة المنطقة:

من أبرز ما يمكن تسجيله ضمن مساحة الأثر الذي خلّفته الهجرة الهلالية على الحياة العامة بالمجال المغرب أوسطي ، ما نورده في النقاط البحثية الموالية:

- فرض ضرائب على السلطة والرعية وتهديد الأمن الغذائي ، حيث أسهم النشاط التخريبي الذي انتصبت له بعض العناصر القبلية الهلالية ببسائط المجال الحمادي وعمليات الإغارة والحرابة بها في تعطيل الحركة الطبيعية للعملية الانتاجية. وحين تعطّلت آلتها وتقلّصت مساحة الأراضي الزراعية وانحصر مجالها ، وقلّ الانتاج وغلت الأسعار ، وعجزت السلطة عن سدّ لزوميات الساكنة الأساسية وتوفير حاجاتها ، اضطرت السلطة وأرباب التجارة إلى دفع إتاوات باهضة لشراء الأمن والهدوء حتىّ دفعوا لأجل ذلك نصف غلاّتهم ومحاصيلهم الزراعية ، فكان الناصر الحمادي يخصّص سنويا جزءا من المحصول الذي يجنيه ويدفعه للهلاليين خطبا للأمن[29].

- تنامي مظاهر الاضطراب بالمجال الحمادي واتساع حدود دائرة انتشار الفوضى والاضطراب به ، ممّا هدّد أمن الساكنة ونغّص عليها أمور الحياة وضيّق عليها سُبلها ولم تسلم إلّا المدن التي كانت في هدنة معهم على كاهل معاهدة سلام أو رشوة تدفع لهم[30].

- تراجع دور مدينة القلعة الاقتصادي وضعف اشعاعها الثقافي ، كما أخذت تفقد مكانتها السياسية كعاصمة الإقليم بعد هزيمة سبيبة ، بعدما عجزت السلطة عن ترويض تلك القبائل وكبح جماحها التخريبي ، وتأطير نشاطها ضمن مجالها على الوجه الذي لا يضرّ

29- بعيزيق ، المرجع السابق ، ص49 ، بوطارن مبارك ، تطور العمران الإسلامي حواضر المغرب نموذجا ، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر ، 2006 ، ص 287-288 ، بكوش: المرجع السابق ، ص67.

30- خالدي عبد الحميد ، الوجود الهلالي السليمي في الجزائر ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2007 ، ص191.

بالمجال والساكنة. حيث لم يجد الناصر بن علناس بُدّا من البحث عن موضع بديل لاتخاذه كعاصمة بديلة لدولته بعيدا عن تأثير العرب السلبي ونشاطها الافسادي ، فاختار موضع بجاية بساطا جغرافيا لذلك ، لمناعته وكثرة الحواجز الجبلية التي تحول دون أن تبلغه خيلهم[31].

- اضمحل الإنتاج الصناعي بالقلعة عندما هاجرها أهل الحرف والصنائع. ولقي النشاط التجاري نفس المصير ، نتيجة انعدام الأمن في الطرقات والمسالك التجارية ؛ حيث عُزلت المدن وقتها ، وضعف دورها الّذي كانت تؤدّيه كمراكز تجارية هامة على غرار مدينة القلعة. وقد لخّص لنا أحد البحاثة التونسيين واقع الضرر الذي انسحب على الحياة الاقتصادية الحمادية عقب موقعة سبيبة ، بأنّ هذه الهزيمة تعدّ إعلانا صريحا بانتصار حياة البداوة والترحال واحتلالها محلّ حياة الاستقرار والتمدّن في المغرب الأوسط. وهذا في رأيه ما أدّى إلى حدوث تغيّرات في البنية الاجتماعية لبلاد المغرب واختلال التوازن الناظم لعلاقة المدنية بالظعن ومجال الساحل بجغرافية الداخل ؛ حين أضحت المناطقة الساحلية أكثر استقطابا للمنشآت العمرانية وتشييد المدن وبالأخص المدن العواصم. وبذلك عرفت خريطة الجغرافية العمرانية تغيرا بارزا ، وأنشطة المنظومة الاقتصادية المغربية تحولا ملحوظا من الوجه الزراعي إلى الرعوي ، خاصة بعدما اضطّربت المسالك التجارية ، وتدهورت الصناعة ، وفشلت السلطة الحمادية في مراقبة المناطق التابعة لها[32].

- بعد ما كانت القلعة الحمادية منارة للعلم والإشعاع الثقافي تستقطب النخب ورجالات العلم وأصحاب التجارة وأرباب الصنائع من كل حدب وصوب ، أخذت مكانتها الثقافية تتلاشى شيئا فشيئا واشراقها العلمي يخفت بشكل تدريجي لصالح بجاية بعد الانتشار الهلالي بضواحيها وتضييقهم على مسالكها[33].

31- مجهول ، الاستبصار ، ص129 ، بعيزيق: المرجع السابق ، ص 55 ، مؤنس ، تاريخ المغرب ، مج1 ، ص 623 ، عمارة علاوة ، الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى بين الذاكرة والتاريخ ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، ع9 ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، 1429هـ/2008م ، ص33.

32- بعيزيق ، المرجع السابق ، ص49 ، علاوة عمارة ، الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد 04 ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، 1425هـ-2004م ، ص61.

33- عمارة علاوة ، الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، ع10 ، جامعة قسنطينة ، 2009م ، ص25 ، حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين ، مؤسسة الخانجي ، مصر ، ص308.

3. التدمير الهلالي في النص المصدري بين الحقيقة والتجاوز "الرؤية الخلدونية أنموذجا":

شكّلت آراء ابن خلدون (ت808هـ/1405م) حيال مسألة النشاط التخريبي الهلالي ودوره في تراجع حضارة المغرب الأوسط، مادة دسمة، جلّت العديد من الحقائق، ورفعت اللبس عن كثير من قضاياه. بيد أنّ الطرح الخلدوني على الرغم من أهميته القصوى في حقل التأريخ لإشكالية الهجرة الهلالية إلى البساط المغربي، إلّا أنّه لا يخلو من صبغة المبالغة في بعض المواطن، ومن تجاوزه عتبة الحقيقة التاريخية حين حمّل العرب الهلالية مسؤولية تفوق طاقتها في مسار التراجع الحضاري الحمادي وانحطاطه. وبذلك تظل بعض روايات هذا المؤرخ على الرغم من قيمتها التاريخية العالية في أمسّ الحاجة إلى إعادة النظر في مضامينها اعتمادا على أسلوب النقد والتمحيص لتمييز الصحيح من السقيم والعليل من السليم.

3. 1 أوجه المبالغة في النص الخلدوني:

- المبالغة في وصف حدّة التخريب الهلالي:

فالمتأمل للنصّ الخلدوني يجد نفسه أمام كارثة تخريبية عظيمة أتت على الأخضر واليابس من عمارة المجال المغربي تركتها قاعا صفصفا لا يُرى فيها عمودا قائما ولا بنيانا مستويا، ويقف على صورة تُوحي بزوال حضارة إنسانية عن بكرة أبيها في فترة وجيزة، وعلى تصوير لإنسان هلالي عدّو للحضارة لا تستقيم له حياة بوجودها ولا يدّخر جهدا في نسف بنيانها إذا ما وقف عليه في طريقه. ومن ذلك قوله: **"وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير وغوّروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد"**[34]. فأيّ قوة يمتلك هذا الصنف من البشر حتى يبلغ ضرره بالعمارة المغربية إلى هذا الحدّ!؟

- نهج سبيل التعميم في وصف الضرر الهلالي بحضارة المغرب الوسيط:

فنحن وإن كنّا لا نقلّل من أهمية النص الخلدوني ومحوريته في دراسة هذه الاشكالية إلّا أنّه لا يخفى على كل باحث في هذه الاشكالية، أنّ ابن خلدون قد استعان بأسلوب تأريخي يعتمد سبيل التعميم في وصف أثر الهجرة الهلالية على مظاهر الحضارة المغربية، إذ لا يغيب عنّا أنّ الضرر الهلالي بحضارة المغرب الأدنى كان أقوى وأشدّ من الضرر الذي تكبّدته الحضارة المغرب أوسطية بسببها في نفس المسافة الزمنية، لكن هذا المؤرخ لم يُدقّق في ذلك، وسحب حجم الأثر السلبي لنشاط بني هلال على كافة المجال المغربي بنفس الحجم من الأثر ونفس المستوى من الضرر. ومما ينطق بمدى مبالغته في الوصف، وانتهاجه أسلوبا تعميميا في الإخبار عن حجم الضرر، تبنّيه لفكرة أنّ إفريقية

34- ابن خلدون، العبر، ج6، ص27.

والمغرب بعدما جازت إليها العرب الهلالية والسليمية منذ أوّل المائة الخامسة من الهجرة ، وعاثت فيها فسادت وتخريبا ، أضحت بسائطها دمارا ، دون استثناء ، إلى درجة أنّ مجال عيثها شمل حتى بلاد ما بين السودان والبحر الرومي كلّه ، إذ بعدما كانت عامرة كما تشهد به آثار البناء والعمارة أصبحت قفرا خالية[35].

- ربط السلوك التخريبي بطبع العنصر العربي:

لعل من صور المبالغة الخلدونية في وصف الفرد الهلالي اعتباره لمظاهر التخريب التي ارتكبها في حق المكونات العمرانية المغربية طبعا متأصلا في سلوكه لا ينفك عنه ، وليس مجرد حادثة توفّرت لها من الأسباب والدوافع الكافية لتقود إلى مثل تلك النتائج الوخيمة. فطبعهم كما ذهب إليه منافٍ للحضارة ، والعرب ما دخلت موطنا إلاّ أسرع إليه الخراب والدّمار ، فهم أمّة وحشية استحكمت أسباب التوحش وعوائده فصار فيهم طبعا جبلوا عليه ، فأضحوا لا ينقادون لحكم ، ولا تسوسهم سياسة ، ولا ينصاعون لقوة ، وغلب عليهم سلوك الترحال والتغلّب على الأوطان ، وذلك حال مناقض لأسباب الحضارة ، وتطوّر العمران. فالحجر -كما يتبنّاه ابن خلدون ويؤكده- ما كانت حاجتهم إليه فيما ينبغي أن يكون له من العمارة والتشييد في الأصل ، بل حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر ، فيبذلون جهدهم لهدم العمارة ونقل أحجارها لاستغلالها فيما ذكر. كما كانوا يجمعون أعمدة المباني من الأخشاب المهيأة بعد هدم سقف المباني لاتخاذها أوتادا وأعمدة لخيامهم. بما يعني أنّ طبيعتهم -حسب الرؤية الخلدونية- منافية للحضارة وثقافة البناء الّذي هو أصل التحضر والعمران ، بل يذهب ابن خلدون أبعد من ذلك حين يرى أنّ ذلك الواقع التخريبي كان حالهم على الدوام والعموم[36]. ويعتقد أحد الباحثين بأنّ ابن خلدون وقع تحت تأثيرات سياسية جعلته يتحامل على العرب وينعتهم بتلك النعوت المشينة ، ويربط تراجع واختفاء دور بعض المدن المغربية بالهجرة الهلالية وحدها ويُحمّلها دون غيرها المسؤولية الكاملة لذلك التراجع ، وذلك اعتبارا بأنّ هذا المؤرخ تقلد المناصب في البلاط المملوكي بمصر في فترة كان الصراع بين سلطة المماليك والعرب الهلالية بالصعيد على أشدّه ، فلعلّه انحاز إلى صف السلطة المملوكية فترجم عداءها لها بنعتها بعدو الحضارة ومخرب العمران ، في خضوع منه لتأثير سلطوي بشكل مباشر أو غير مباشر[37].

35- ابن خلدون ، المقدمة ، ص 121.

36- المصدر نفسه ، ص 120.

37- الغنيمي عبد الفتاح ، موسوعة المغرب العربي ، مج2 ، ط1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1414هـ-1994م ، ص247-249.

- افتقار بعض روايته إلى السند التاريخي الذي يقوّيها:

يضعنا ابن خلدون على كاهل أسلوبه البياني البديع أمام مشاهد قاسية تحاكي نهجا تدميريا هلاليا عنيفا أضرّ بمظاهر حضارة المغرب ضررا بليغا ، وإن كنّا لا ننفي أنّ للعرب يدا في ذلك إلّا أنّنا نعاين أسلوبا خلدونيا مبالغا فيه ، خصوصا وهو يؤرخ لحدث بعيد زمنيا عن عصره بمسافة تناهز ثلاثة قرون ونصف ، ولا يطلعنا على سنده المصدري الذي كان معينه لتشييد رؤيته في ظل استبعاد بقاء شواهد ماثلة أمامه لأوجه الخراب وآثاره.

- التناقض في بعض مواقفه حيال الانتشار الهلالي في بلاد المغرب:

سجّلت الدراسة التاريخية التي عكفت على تحليل مواقف ابن خلدون ووجهات نظره بخصوص الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب ، أوجها من التناقض في طرحه والتضاد في موقفه تجاهها ، ففي الوقت الذي يؤكّد في مواضع من مصنّفه "العبر" على طابعها العدائي لأي لون من ألوان الحضارة ، يشيد في مواطن أخرى منه بالدور البنّاء للإنسان الهلالي في مسارها ، ويُثني ثناءً حسنا على دور العائلة الهلالية التي استطاعت أن تؤسس ملكا على غرار الأسر المحلية الحاكمة. كما نراه في محطات من ذلك المصنف لا يُعفي القيادة المحلية من مسؤولية التخريب الذي مسّ العمارة المغربية والتراجع الحضاري الذي شهدته مدنه على غرار مدينة نقاوس -بمنطقة باتنة حاليا- على يد المعز بن باديس ، أو القلعة الحمادية على يد الموحدين ، وكان ابن خلدون قد ربط نهاية هذه المدن بالخراب الهلالي كما بيّناه في ما سبق[38]. وهو ما يكشف تناقض الرواية الخلدونية أحيانا بشأن تحديد المتسبب والناتج في العملية التخريبية الواحدة.

3. 2 الرؤية الخلدونية والطرح الاستشراقي المتحامل على الحقيقة التاريخية:

لفت انتباهنا أحد الباحثين إلى أنّ الطرح الخلدوني المبالغ فيه حيال موضوع الهجرة الهلالية ، قدّم من حيث لا يدري ، حُجة تاريخية ، تلقّفها بعض المتعصّبين من المستشرقين بنيّة غير حسنة لترجمة حقدهم وعدائهم للعرب والمسلمين في ثوب دراسة لتاريخ الهجرة وموقعها في مساحة مسببات التراجع الحضاري الذي أعقب انتشارها على البساط المغربي خلال القرن 5ه/11م ، ومنحهم قرينة تاريخية أسندوا إليها ظهر آرائهم المتحاملة على نشاطها بالمنطقة حين ركّزوا على إبراز الدور السلبي لبني هلال على حضارة

38- ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 229- 236 ، عمارة ، الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب ، ص24.

بلاد المغرب وحمّلوهم وحدهم مسؤولية تراجعها في ثوب بحثي لا يخلو من روح الصليبية والمبالغة ، ومن ذلك الاستشراق الفرنسي[39].

فأغلب تيارات الاستشراق الفرنسي تربط أفول نجم الدولة الحمادية بالهجرة الهلالية ، وتعتبرها أكثر الهزات عنفا في تاريخ الجزائر الوسيط ، وفاعلا محوريا في ما عرفه مسارها من اضطرابات وتحوّلات كبرى أدّت في نهاية المطاف إلى انحطاطها. فمع مطلع القرن العشرين حاول جاهدا **الجنرال دوبايلي (le Général de Beylié)** في كتابه "قلعة بني حماد ، عاصمة بربرية لإفريقيا الشمالية" تحميل بني هلال المسؤولية الكاملة في أفول نجم حضارة القلعة الحمادية في نظرة معادية للعرب متطاولة عليهم[40].

روبار برانشفيك (Robert Braunschvig)، أحد المتخصصين الفرنسيين في التاريخ السياسي والديني للمغرب الاسلامي الوسيط ، صاحب الدراسة الشهيرة "تاريخ افريقية في العهد الحفصي" ، لم يتخلّف عن الركب المعادي للعرب المتحامل عليها ، فدراسته السابقة وبالرغم من كونها تعالج اشكالية تبعد بمسافة زمنية معتبرة عن تاريخ الاجتياز الهلالي إلى أرض المغرب خلال القرن 5ه/11م ، إلّا أنّ مسألة الهجرة لم تعزب عن اهتمام هذا المستشرق بالدراسة والتحليل لبناء مقارباته حول اشكالية اضمحلال حضارة المغرب. فالاجتياح الهلالي للمغرب من منظوره مثّل هزّ جدّ عنيفة كسرت ظهر البنية الحضارية للمجال الجغرافي الذي افترشوه ، استمرّ دوي ضررها بمسارها ومكوناتها على مدار عدّة قرون لاحقة. وحتى لا نتيه عن جادة صواب اشكاليتنا البحثية لو تتبّعنا بإسهاب مواقفه من قضية الهجرة الهلالية وعمق الأثر الفريد الذي خلّفته على حضارة البلاد ، نقتصر على موقفه حيال اشكالية الانتقال الحمادي إلى بجاية واتخاذها عاصمة بديلة عن القلعة والذي كان حسب رأيه نتيجة من نتائج "الزوبعة الهلالية"[41].

كما لم يخل الطرح الذي تبنّاه **جورج مارسي (Marçais Georges)** أحد المستشرقين الفرنسيين المهتمّين بكتابة تاريخ الجزائر الوسيط من قساوة الحكم وجزافيته في معالجة مخلفات الانتشار الهلالي بمجاله خلال القرن 5ه/11م. فاتهاماته للعرب بتخريب حضارة المغرب وتحميلها مسؤولية تخلفه ترددت في العديد من مصنفاته

39- أنظر: الغنيمي ، المرجع السابق ، مج2 ، ص 238.

40- عمارة علاوة ، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2008 ، ص12 ، GENERAL de Beylié : La Kalaa des Beni Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du nord au 10ème siècle, Paris, 1909, p9.

41- برانشفيك روبار ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م ، ج1 ، ترجمة ، حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1988 ، ص 410.

راسمة تصوّره لهمجية مشرقية سلبت حقوق الانسان البربري[42]، وترسم في المخيال انسانا هلاليا عدوا لدودا للحضارة، وهو ما يصدع به قوله: "ولقد ظهرت في هذا المجال الكارثة العربية أكثر وحشية والصورة المعهودة للخراب نتيجة هجوم الجراد ببلاد المغرب"[43]. فأدخل هذا التخريب الهلالي بلاد المغرب في نمط البداوة بعدما سلبت أراضي سكّانه، ثمّ تلاها طور جديد تميّز بالانحطاط والسقوط[44]. ويبدو أنّ مارسي كان يفضّل استخدام مصطلح الكارثة "العربية" على "الهلالية" كما هو بادٍ في روايته؛ لأنّ الأول أعمّ وأبلغ لمراده العدائي.

من الأحكام العنصرية العدائية التي تبنّاه الطرح الاستشراقي في دراسته لإشكالية الهجرة العربية وانحطاط حضارة المغرب، رؤية الباحث **أميل فليكس غوتي** (Emile Félix Gautier) الذي اتهم العرب بتحطيم حضارة المغرب التي توارثوها عن أجدادهم الرومان والبيزنطيين. وهي نظرة ترتدي ثوب الايديولوجية الاستعمارية كما راق للباحث عمارة علاوة الاصطلاح عليها؛ لأنّه يشبّه الحركة الهلالية بهمجية الشعوب المتبربرة المحطِّمة لحضارة روما[45]. فهذه النزعة المعادية للعنصر العربي والحضارة الاسلامية وظّفها صاحبها في خدمة المشروع الاستعماري الفرنسي زمنئذ حين حمّل العرب مسؤولية التخلّف الذي عاشه المغرب من جهة، ومن جهة ثانية أقصى حلقة هامة من حلقات سلسلة الحضارة الاسلامية التي شيّدها الانسان المغربي على مجاله حين ربط ماضيه بروما.

ضمن تيار الاستشراق دائما، يضعنا الباحث **الهادي روجي ادريس (Hady Roger Idris)** من خلال الدراسة التي خصّها بتاريخ الدولة الصنهاجية أمام رؤية لا تخلو هي الأخرى من صبغة التحامل على الحقيقة التاريخية في مسار اظهار مساوئ الانتشار الهلالي ببلاد المغرب. فهذا الباحث شنّ حملة شعواء على العرب الهلالية بأرض المغرب باعتبار هجرتها كارثة عظيمة مُنيت بها بلاد المغرب، وضربة قاضية لحضارته بنتائجها التخريبية لعمران المنطقة ومحاصيلها الزراعية، وصنوف اغتصاب الأراضي وطرد الساكنة[46]. وبذلك فكأنّه يحصر وجهة نظره تجاه هذه الغزوة أو الزحفة -كما اصطلح عليها

42- علاوة عمارة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر، ص12.

43- مارسيه جورج، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود هيكل، مطبعة الانتصار، مصر، 1999، ص233.

44- المرجع نفسه، ص 238.

45- علاوة عمارة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر، ص13.

46- روجي ادريس، المرجع السابق، ج1، ص 307-309، علاوة عمارة، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر، ص 16.

هو وغيره- في كونها كارثة سياسية واقتصادية واجتماعية لم يسبق لها مثيل ، حلّت بالحضارة المغربية بعدما أسلم أهلها إلى جحافل الأعراب الرحل[47] ، ويحصر نتائجها في كونها مثّلت إعلانا صريحا عن نهاية العصر الذهبي لبلاد المغرب.

4. تقييم دور السلطة الحاكمة في تسيير مرحلة الأزمة:

لسنا نروم من خلال هذا الطرح تبرير صنائع العرب الهلالية في مجال المغرب الأوسط ولا انكار حقيقة ضررها بحضارته ، لكننا نروم انصافها ؛ من حيث لا نحمّلها ما لا طاقة لها به وإنّما نرميها بما صنعت فقط ، ونكشف عمن كانت له يد في ما آلت إليه أمور بني حماد من تراجع حضاري سواء بشكل مباشر أو غير مباشر ؛ أي عن قصد أو غير قصد لاسيما القيادة السياسية الحاكمة. كما لا نتغيّأ من ورائه اتهام السلطة بقدر ما نحاول الوقوف على أخطائها ومواطن التفريط وسوء التدبير التي جنت العمارة الحمادية مخلفاتها ، ومن أبرز أوجه ذلك:

4. 1 عدم اتخاذ اجراءات وقائية:

من الأسئلة التي تفرض نفسها بإلحاح في ساحة البحث في اشكالية آثار الهجرة الهلالية على عمران المغرب الأوسط ، لماذا لم تتخذ السلطة الحمادية الاجراءات الوقائية الكفيلة بتجنيب البلاد ما حلّ بعمارة أبناء العمومة من بني باديس الزيريين وقد علمت ما حل بمدنها من خراب ودمار وبمجالها من عيث وفساد ؟ ولماذا قلّلت من شأن خطرها على دولتها وأنباء سقوط القيروان قد بلغت الآفاق ؟ مع أنّنا لسنا نحوز قصب السبق في طرح هذا السؤال بل سبقنا إليه غيرنا من أهل البحث ، فقد تساءل جورج مارسيه في القرن الماضي قائلا: نحن نقدّر إلى حدّ ما مدى حجم هذه الكارثة العربية الهلالية ونتساءل في ذات الوقت كيف لم يتبيّنها أسياد البلاد المغربية الّذين كانوا ضحاياها[48].

فهل كانت القيادة الحمادية تتبنى أطروحة أنّ دخول العرب الهلالية إلى بلاد المغرب كان مشروعا انتقاميا من ورائه البلاط الفاطمي بالقاهرة يستهدف السلطة الزيرية الباديسية على صنيع القطيعة والانفصال وسوء الأدب الذي خاطب به المعز بن باديس وزير الفواطم ، فتكون بذلك دولة بني حماد غير معنية بضرر العرب وإفسادهم بمجالها ؟

لعلّه من الطبيعي أنّ اتخاذ السلطة الحماية كافة احتياطاتها الوقائية التحصينية العسكرية والسياسية من شأنه أن يحول دون تعرّض مجالها لضرر العرب الهلالية ، أو على الأقل التخفيف من سوء تبعاته. فالمظان لا تمدّنا بنصوص تكشف عناية السلطة الحمادية خلال مسار العقد الخامس من القرن 5هـ/11م بتقوية دفاعاتها والزيادة في قوة

47- روجي ادريس ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 245.

48- مارسيه ، المرجع السابق ، ص233-234.

مناعتها الطبيعية والاصطناعية ، كبناء الأسوار وتكثيف الحواجز. ولما لا تقديم الدعم العسكري لأبناء العمومة من بني باديس والتحالف مع القبائل الصنهاجية والزناتية لوضع حدّ لنشاط بني هلال التخريبي وكبح جماحها التوسعي وإضعاف قواها الافسادية[49]. وكأنّها بقيت تنتظر دورها في التخريب الهلالي إلى حين وقته ، غير آبهة بحجم الخطر المحتمل أن تجنيه إذا أهملت تفعيل حاسة الوقاية على عمارة مجالها ومستقبل دولتها.

4. 2 الانشغال بالتنافس والصراع بهدف التوسع:

شكّل انشغال السلطة الحمادية بتحقيق مطامحها التوسعية وتصفية حساباتها العسكرية مع خصومها في الداخل مع القبائل الزناتية أو الخارجية مع القيادة الزيرية الباديسية بشكل أوسع ، نقطة فارقة في مسار التصدي لنشاط العرب الهلالية وترويضها ، فملوك الدولتين الزيرية الباديسية والحمادية في الوقت الذي كان عليهما أن يبحثا سُبل التوافق والاتحاد ولو مؤقتا لدفع الخطر الهلالي وردع القبائل التي اجتاحت المجال والرعية ، انشغلا بتنفيذ مشاريعهما التوسعية وبلوغ السيطرة الأحادية على قبيلة صنهاجة الحاكمة. وهو الظرف الذي كان في صالح العرب الهلالية التي وجدت مجالا واسعا تصول فيه خيلها وتجول دون رقيب أو حسيب ، تُغير وتعيث فسادا وتقطع السابلة لسد متطلبات الحياة ما دامت لم تعهد الاستقرار بطبعها البدوي بل تطلب رزقها بالتغلّب على الأوطان والسيطرة على مجالها كما أحال إليه الرأي الخلدوني ونظّر له[50].

4. 3 عدم المسارعة لصدّ انتشارها بالمجال الحمادي:

تطالعنا النصوص التاريخية التي أمكننا معاينة مادتها بأنّ العرب الهلالية أول ما وطأت أقدامهم مجال المغرب الأوسط ، أوعزت القيادة الحمادية لعناصر القبيلة الزناتية بمدافعتهم دون أن تتدخل بجيوشها وتشد من عضدها لمقاومتهم. ولقد كانت بين العرب

49- ولا تفوتنا الاشارة في هذا السياق إلى أنّ المعز بن باديس الزيري قد بعث بالصريخ إلى ابن عمّه القائد بن حماد بن بلكين يستنجد به على خصومه من العرب الهلالية حين كان في مسيرة مجابهتهم ، كما أرسل إلى قبائل زناتة وصنهاجة يطلب معونتها ، ومع ذلك انهزم هزيمة قاسية في معركة حيدران سنة 443هـ/1052م وغيرها من المعارك التي خاضتها جيوشها ضدّ العرب. للتفصيل في أسباب الهزيمة وفشل سياسة التحالفات التي أبرمها المعز ، انظر: ابن خلدون: العبر ، ج6 ، ص20 ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، مج8 ، ص296 ، عبد القادر المشرفي الجزائري ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ، تح ، محمد بن عبد الكريم ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص24.

50- ابن خلدون: المقدمة ، ص 120.

وزناتة وقائع وحروب شديدة حُسمت لصالح العرب في غياب مخطط استراتيجي عسكري حمادي محكم كفيل بترجيح الكفة لصالح السلطة صاحبة الاقليم[51].

ولئن كان اندفاع زناتة لمقاومة الوافد الجديد إلى مجالها لا يعكس تجاوبها مع مطلب السلطة الحاكمة فقط وإنّما يترجم كذلك رغبتها في محاربتهم للحفاظ على موطن استقرارها ، وتفادي المصير الذي لقيه إخوانها من زناتة المغرب الأدنى على يده حين اجتاح مجالها وأجبرها على مغادرته ، إلّا أنّ مصيرها هي الأخرى لم يكن مختلفا عمّا حل بهم ؛ فقد فأزاحهم العرب عن منطقة الزاب وما يليه إلى المناطق الجنوبية الصحراوية وزاحموها سيادة سواد المجال البدوي. وهو ما نجد صداه في رواية ابن خلدون التي مؤداها: بأنّ الزناتيين اتفقوا على حرب الهلاليين ، وعقدوا ذلك لوزيرهم أبي سعدي خليفة اليفرني ، بيد أنّ جهود هذا الأخير الحربية والدفاعية لم تؤت أكلها ، وإنما فشل في مدافعتهم عن ضواحي الزاب والمغرب الأوسط. وبذلك لم تفلح زناتة في المنافحة عن إقليم إفريقية والزاب ضد نشاط بني هلال المتنامي ، وركنت إلى الصلح وطلب المهادنة مع العرب لمّا استقرّ للأخيرة الغلب ، وتبعهم الصنهاجيون في النزوح نحو الصلح والمهادنة كذلك[52].

وعلى اثر هذا النصر الهلالي أطلق العرب يدهم في ذلك المجال وبسطوا سيطرتهم عليه ، دون أن يحرّك ملوك بني حماد ساكنا لمدافعتهم وكبح جماحهم عسكريا ، وأمام تزايد النشاط التخريبي العربي اضطرّوا لمهادنتهم وعقد اتفاق يقضي باحتفاظ بني حماد بالمدن واستئثار العرب بالقرى والأرياف ، ومن ثمّ فقدانها حق الاشراف على مجال واسع من ممتلكاتها واختلال نظام الأمن ضمنه وفلتان زمام السلطان من يد صنهاجة عليه[53]. وهو ما يكشف بجلاء عجز السلطة عن مقاومة النشاط الهلالي في مجالها وفشلها في تأطيره ، واستسلامها أمامه حين لجأت إلى الاعتراف بسلطتهم على بسائط جزء من جسم دولتها ، في سلوك سلطوي يعبّر عن ضعف هيبة الدولة في عين الخصم ويمنح الأخير الجرأة على التمادي في سلوكه التخريبي وتجاوزاته على الممتلكات والاستبداد بالبلاد ، والطموح في توسيع مجال السيطرة.

وهو الطرح الذي يشفع له كذلك سلوك التخاذل من طرف السلطة الحمادية عن تأديب القبائل الهلالية حين اكتسحت مجالات مدينة القلعة وتخريبها سنة 512هـ/1118م

51- بورويبة رشيد وآخرون ، الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 207 ، شبيرة ، المرجع السابق ، ص85.

52-ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 27.

53- بورويبة ، الدولة الحمادية ، ص55.

في عهد العزيز بن المنصور (500-515هـ/ 1106-1121م)، أين سجّل لنا النص المصدري غياب فاعلية الجيش الحمادي في ردع مظاهر التجاوز على عمارة القلعة وممتلكات الرعية، حيث اكتفى بتهدئة الأحوال بعدما قطع مسافة كبيرة انطلاقا من بجاية عاصمة الدولة إلى القلعة في وقت كان يقتضي الحزم والضرب بيد من حديد، بما يوحي بأنّ القيادة نهجت سياسة المسالمة والاسترضاء وتجنّب الصدام ولو أنّه لا يخدم مصلحتها وإنّما يعكس ضعفها عن الضرب بيد من حديد على يد المخَالِف.

ولا بأس من الاستشهاد بدور الحزم والقوة والاتحاد في حسم الأمور لصالح السلطة الحاكمة، وهو ما لمسنا وجها منه في سلوك السلطة الموحدية بعدما امتدّ نفوذها إلى مجال المغرب الأوسط، حين تمكّنت تحت مفعول القوة العسكرية من اخضاع العرب في موقعة سطيف سنة 548هـ/1153م، فكفّوا أيديهم عن النهب والتخريب وانصرفوا لخدمة الدولة[54].

4.4 تحالف السلطة الحمادية مع العرب الهلالية، أي مصير؟

لقد مرّ بنا أنّ الهرب الهلالية أجبرت السلطة الحمادية على عقد اتفاقية سلام بين الطرفين تخول للعرب الاستئثار ببسائط الأرياف والقرى والامتناع عن المدن والحواضر، وكأنّها حازت على اعتراف ضمني بشرعية وجودها على البساط الحمادي، فأضحت القبائل الهلالية تتحرك بحرية تامة تصول وتجول ضمن مجالها دون رقيب أو حسيب. واستمر الأمر على ذلك الهدوء إلى غاية موقعة سبيبة كما مرّ بنا. وحتى لا نقع في فخ التكرار وقد طرقنا مرامي كل طرف من التحالف الحمادي الهلالي الذي أفضى إلى نكبة حمادية كبيرة وانكسار قوي لقوتهم العسكرية في هذه الموقعة، نشير بأنّ السلطة الحمادية في الوقت الذي كانت مطالبة بمراقبة نشاط القبائل الهلالية في مجالاتها، وتأمين رعيتها من ضررها، والاتعاظ بالدروس والتجارب التي عايشها أبناء العمومة من بني باديس الزيري حين حاولوا مرارا عبثا أن يستثمروا جهود العرب الهلالية في خدمة مشاريعهم العسكرية والاستعانة بخدماتهم في سبيلها، ولم يجنوا من سعيهم ذلك غير الدمار والخراب لبنية دولتهم العمرانية ومكونات حضارتهم وما مصير القيروان عن أعينهم ببعيد[55]، راح الأمير الحمادي الناصر بن علناس يخطب ودّ بني هلال لدعمه في حربه ضد

54- عمارة، الحفريات الأثرية، ص 33، كرطالي أمين، الانعكاسات السياسية والاقتصادية للوجود الهلالي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني (633-962هـ/1235-1554م)، مجلة عصور، مج17، ع2، وهران، الجزائر، 2018، ص 102.

55- التجاني عبد الله، رحلة التجاني، قدم لها ،حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس ،1981م، ص20، النويري، المصدر السابق، ج24، ص119، ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل

بني باديس الزيري ، معتقدا أنّهم باتوا أداة طيعة يمكنه توجيهها حيث يرجو حين حظيت بدعمه في حروبها بين بطونها المتصارعة فيما بينها[56]. فكأنّنا بالناصر بن علناس على ضوء سياسته هذه قد أساء التدبير حين استهان بقوة العرب ، وفشل في كسب ودّهم ، وعجز عن ضمان ولائهم.

5. الخارطة الاجتماعية والاقتصادية لمدن المغرب الأوسط بعد الهجرة الهلالية:

في ظل التضارب الوارد بشأن حدّة الضرر الهلالي بحضارة المغرب الأوسط الحمادي وموقع العرب في مسار التراجع الحضاري الذي شهده مجاله عقب الهجرة الهلالية ، رأينا أن نستنجد بالنص الجغرافي ، لنعاين على ضوئه مصير المدن الحمادية التي طالها التخريب الهلالي ، هل فقدت اشعاعها الثقافي ومكانتها الاقتصادية ودورها السياسي أم ظلّت تحافظ على ذلك عقب الانتشار الهلالي بمجالها ولو بشكل خافت ؟

- مدينة القلعة:

سبق وأن عرّجنا على طبيعة الضرر الذي ألحقه بنو هلال بمجال القلعة الحمادية ، وعمليات التخريب التي طالت عمرانها على أيديهم ، وكان من أبرز ما لفت انتباهنا كنتيجة من نتائج التأثير الهلالي على حضارة هذه المدينة ، أنّ السلطة اضطرت إلى نقل مقر العاصمة إلى موضع بديل وهو بجاية ، فهل يعدّ النشاط الهلالي سببا رئيسا في تغيير السلطة عاصمة الدولة ؟ وما مصير القلعة بعد مغادرة السلطة مجالها ؟

للإجابة على الشطر الأوّل من السؤال ، يحسن بنا التوقف بصورة مقتضبة عند الأسباب الرئيسة لبناء الناصر مدينة بجاية. وهذه الاشكالية في الحقيقة تعدّ من القضايا التي نالت اهتماما ملحوظا من أهل البحث لتفكيك مستغلقاتها والاهتداء إلى القول الفصل الذي يذيب شوائب التضارب في الرؤى حيالها. وجَليَّةُ الأمر ، أنّ الرأي بشأنها انشطر على قولين ، سلك فريق عريض مسلك القول بأنّ النشاط التخريبي الهلالي بالإقليم الحمادي كان فاعلا قويا في إرغام الناصر على البحث عن ملاذ آمن يقيه شرّهم ؛ بما يعني أنّه نقل ملكه إلى بجاية تحت ضغطهم مجبرا ؛ حين خرجت الأمور عن سيطرته وعجز عن ترويض القبائل الهلالية. ومن القرائن التي استند إليها أصحابه ، رواية ابن

الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان ، ج1 ، تح ، لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1396هـ-1976م ، ص174 ،

56- ولعلّ نجاح الأمير الحمادي بلكين بن محمد في الاستعانة بخدمات بعض بطون القبائل العربية الهلالية في حربه ضدّ العناصر الزناتية سنة 450هـ/ 1058-1059م ، قد حفّزه على التحالف مع العرب واستثمار خدماتها. انظر: ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص27 ، بورويبة ، وآخرون ، الجزائر في التاريخ ، ص207.

خلدون التي مؤداها: أنّ الحماديين لاذوا بموضع بجاية لما كانت العرب تسومه بالقلعة وشتى ضواحيها من خطة الخسف ووطء ساحاتها ؛ إفسادا وعيثا وإضرارا[57].

أمّا الطرح الثاني ، والذي لا يُلغي بشكل مطلق حضور التأثير الهلالي في قائمة الأسباب التي دفعت الناصر إلى تغيير مقر عاصمة دولته ولا يمنحه مكانة مرموقة ضمنها بل حضورا نسبيا ، فيعتقد أصحابه أنّ هذا الانتقال يعكس رغبة الناصر في إيجاد ميناء بحري تجاري-حربي لعاصمته القلعة. وهو منظور يستقرأ تطلعات الناصر الحمادي ويستنطق طموحه ويستشرف مشاريعه[58]. وبذلك فالانتقال الحمادي إلى بجاية يتجاوز الطرح التقليدي الذي يعزوه إلى فرار الناصر من إفساد العرب ، ليترجم نظرته في الأفق لتلبية مطامحه التوسعية ، وتغذية خزينة دولته بعائدات التجارة البحرية إذا وسّع من وارداتها ، ولم تقتصر العائدات على ما تضخّه في خزائنه موارد التجارة القوافلية التي تمتدّ شرايينها شرقا وغربا وجنوبا ومداخيل القطاع الفلاحي.

ويستعين من نافح عن هذه الرؤية بالرواية التي ترددت في متون المظان بأنّ محمد ابن البعبع (رسول تميم بن المعز إلى الناصر لعقد الصلح بينهما بعد موقعة سبيبة) أشار على الناصر بن علناس حين كانا في الطريق عند عودتهما قاصدين القلعة ببناء بجاية وأراه المصلحة في ذلك الّتي تحصل له من الصناعة وكيد العدو ، حيث يكون له فيها دار ملكه خاصة وهي تقرب من جميع بلاد إفريقية[59].

ضمن ذات المنظور ، يعتقد أحد الباحثين أنّ تفكير الناصر الحمادي في ايجاد موضع بديل لعاصمة الدولة ينطلق من أساس رغبته في معالجة اختلال التوازن الديموغرافي بين الداخل والساحل وبين المدينة والريف ، حين اختنقت القلعة بالساكنة ، ولكن دون أن يتملّص بشكل مطلق عن سبب التأثير الهلالي[60]. ولا يكاد هذا يختلف عمّا ذهب إليه الباحث التونسي بعيزيق الذي لا يربط بروز بجاية في ساحة الأحداث السياسية الحمادية بما عرفته القلعة وضواحيها من خراب أدّى إلى تدهورها بقدر

57- ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 232.

58- فمارسيه جورج ، يعتقد أن بحث الناصر عن موقع ساحلي لمدينته هو توجيه الأنظار نحو تجارة ما وراء البحر والقرصنة. MARÇAISGeorge, Algérie Médiévale monuments et paysages historiques, arts et métier graphiques, Paris, p 41.

59- النويري ، المصدر السابق ، ج24 ، ص124 ، الحموي شهاب الدين ياقوت ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1397هـ/ 1977م ، ص339.

60- خلفات مفتاح ، علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد10 ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، 1430هـ/2009م ، ص45.

يعتبره مرتبطا بشكل كبير بذلك التغيّر البنيوي للمجتمع الداخلي الّذي كان أهمّ مظاهره تدهور أحوال القلعة[61].

وعلى هذا الأساس ، نخلص إلى القول بأنّه لا يمكن الفصل في اشكالية أسباب الانتقال الحمادي إلى بجاية بإقصاء سبب وتغليب آخر ، وإنّما نعتقد بأنّ كل الاحتمالات واردة ، وأنّ لكل سبب نصيب في دفعه إلى ذلك ، مع التأكيد على أنّ التأثير الهلالي حتى وإن كان له كلمته في منظومة تلك الأسباب إلّا أنّ صوته كان خافتا ، بدليل أنّ الناصر بقي يتردّد بين القلعة وبجاية منذ بنائها سنة 461هـ/1068م دون أن يغادرها بشكل نهائي حتىّ هلك سنة 481هـ/1088م وحتى ابنه المنصور الذي خلفه لم ينتقل إلى بجاية إلاّ سنة 483هـ /1090م[62]. فلو كان الأمر فرارا من العرب لنقل الناصر ملكه إلى بجاية فور اتمام بناءها.

أمّا بالنسبة للسؤال الثاني ، فإنّ مفاحصة الأحداث التاريخية التي اصطبغ بها واقع القلعة السياسي والثقافي والاقتصادي ، تكشف لنا بأنّ الأسباب التي أدّت إلى تراجع دور القلعة الحمادية عقب الانتشار الهلالي بإقليم المغرب الأوسط متعدّدة ومتداخلة ، ولا يعقل حصرها في سبب التأثير الهلالي دون غيره.

في محطة أولية للإجابة على هذا السؤال ، ينبغي الاشارة إلى أنّ تحويل العاصمة السياسية من مدينة القلعة إلى بجاية تحت أي ظرف كان يمثّل سببا رئيسا في تراجع دور القلعة السياسي وإشعاعها الثقافي ، على اعتبار أنّه من الطبيعي أن تكون العاصمة السياسية للدولة أكثر استقطابا للنخب وأرباب الصنائع والتجارة ، وأكثر المدن حظا في اهتمام السلطة بأمنها وسلامتها ما دامت تُؤوي ملكها وتحتضنه. وبذلك فإنّ للقيادة الحمادية يد في تقهقر دور القلعة واضمحلال مكانتها وتراجع حضارتها شيئا فشيئا حتى سقوطها في يد الموحدين سنة 547هـ/1152م ، سواء بتهاونها في الضرب بيد من حديد على يد من يعيث فسادا في مجالها أو من خلال صرف جلّ اهتمامها لتغذية المشاريع التوسعية التي أنهكت خزينة الدولة وقواتها العسكرية على حساب النظر في شؤونها الداخلية ومعالجة الإزم التي تعيق الاستقرار وأمن الرعية.

مع أنّ نقل السلطة الحمادية عاصمتها السياسية إلى بجاية ما كان يعني تخلّي القلعة عن دورها الثقافي ، بل ظلّت المدينة تشكّل أحد مصادر الإمداد المعرفي لتزويد

61- بعيزيق ، المرجع السابق ، ص 50.

62- ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 232.

بجاية برجالات العلم والثقافة ، وتلعب دورها في انعاش الحراك الفكري الذي تعرفه العاصمة الجديدة ، وتموينها بطلبة العلم ونخبته[63].

أمّا بشأن مدينة طبنة ، فإنّ التراجع الحضاري الذي عرفته المدينة لا يرتبط أساسا بما شهدته البلاد من هجرة هلالية بقدر ما كان حتمية لظرفية استثنائية فرضت نفسها عليها ، وذلك أنّ الدور الطبني أخذ في التراجع منذ بناء مدينة المسيلة سنة 315هـ/928م[64] ، حيث أخذت طبنة تتخلّى عن مكانتها كقاعدة للزاب شيئا فشيئا لصالح المسيلة ، ومع استمرار الوضع المضطرب أيام الانتشار الهلالي بالمنطقة تنامت حدّة ذلك التراجع. إلاّ أنّ طبنة لم تفقد مكانتها الاقتصادية بشكل نهائي بعد الهجرة الهلالية ، وهو ما يجلّيه النص الجغرافي ، فهي عند الإدريسي خلال القرن 06هـ/12م أي بعد الانتشار الهلالي ومظاهر التخريب الذي ألحقوه بمجالها ، حيث ظلت مدينة حسنة تجري بها المياه ومزدانة بالبساتين وكثيرة الزروع ووافرة القطن والحبوب كالحنطة والشعير. وبها صنائع متعددة وتجارات متلونة وأموال لأهلها وفيرة في صنوف متعددة من التجارات[65].

كما لم تفقد مدينة المسيلة مكانتها الاقتصادية حتى وإن تعثّرت لفترة زمنية مؤقتة بسبب الانتشار الهلالي بالمنطقة ، فهي في عصر الإدريسي (ق06هـ /12م) ، مدينة تقع في بسيط من الأرض ، عامرة بالناس والتجار والمزارعين والحرفيين ، وناشطة بها مختلف أعمال التجارة والفلاحة ، **"ولأهلها سوائم خيل وأغنام وأبقار وجنات وعيون"**[66].

وعليه ، وحتى لا نقع في فخّ التناقض والتضارب في طرحنا لهذه المسألة ، ينبغي التأكيد بأنّه لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن ننكر الضرر الهلالي بعمارة المجال الخاضع للمدارسة ، والتأثير السلبي على حياة الساكنة خصوصا ببسائطه والمناطق الداخلية والجنوبية ، وعرقلة العملية الانتاجية بشكل ملحوظ في بعض جهاته ، إلّا أنّ ذلك ما كان يعني أنّ القبائل الهلالية لم تتعايش مع الساكنة المحلية ولم تندمج في النسيج الاجتماعي المغربي ، وإنّما كان العرب يعيشون في تآلف مع سكّان المدن ،

63- الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص161 ، عمارة: الحفريات الأثرية ، ص 33، خلفات ، المرجع السابق ، ص 49.

64- ابن حماد ، المصدر السابق ، ص46 ، بن الذيب عيسى ، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر1954 ، الجزائر ،2007 ، ص 75.

65- الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 263. راجع كذلك ما أورده في هذا الشأن ، المراكشي عبد الواحد ، وثائق المرابطين و الموحدين ، تح ، حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد ، مصر ، 1997 ، ص 110.

66- الإدريسي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 254.

ويشترك أهلها مع العرب في الحرث والزراعة. كما أسهموا في عملية التعريب ، وشاركوا في عمليات التصدي لغزوات الروم من جهة الساحل[67].

تأسيسا على ما سبق ، يتبدّى لنا بأنّ العرب الهلالية وعلى الرغم ممّا أقدمت عليه من ضروب التخريب ومظاهر النهب والإفساد بمجال المغرب الأوسط ، إلّا أنّ ذلك لا يمنحنا مسوغ تحميلها كامل المسؤولية بشأن تراجع الدور السياسي والاقتصادي والثقافي لمدنه وما آلت إليه حضارة بني حماد من تراجع خلال القرن السادس الهجري (12م) ، وإنّما تضافرت العديد من الأسباب وتداخلت مجموعة من العوامل كانت وراء ذلك التراجع.

الخاتمة:

من خلال ما تمّ تقديمه يمكن إيجاز أهم ما توصل إليه الباحث في النقاط الموالية:

- لعب التخريب الهلالي لمكونات عمارة المجال المغرب أوسطي ونشاطهم الإفسادي به دورا ملحوظا في التراجع الحضاري الحمادي ، بيد أنّه لم يكن العامل الوحيد الفاعل في ذلك ، وإنّما كان سببا ضمّ صوته إلى باقي الأسباب المتداخلة سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي على غرار الصراع القبلي الصنهاجي الزناتي ، والسياسي الحمادي البديسي-الزيري أو الحمادي المرابطي ، والصليبي ضدّ الغارات النورماندية القادمة من الشمال.

- ساهمت السلطة الحمادية ولو عن غير قصد في توفير أسباب خراب مجالها على يد العرب الهلالية حينما اعتمدت سياسة المسالمة واجتناب الصدام العسكري لكبح جماحهم وكفّ أذاهم عن بلادها ، بما يعكس ضعف السلطة المركزية عن المجابهة وعجزها عن إدارة شؤون مجالها في عزّ الأزمة. أو من خلال سلوكها سبيل الاستعانة بخدمات بني هلال لتنفيذ مشاريعها التوسعية على حساب ملك بني باديس الزيري بالمغرب الأدنى في الوقت الذي كان ينبغي التحالف مع أبناء العمومة لتأطير نشاط العرب والتحكم في حركتها والقدرة على ترويضها ، وقد أشرنا إلى تلك العواقب الوخيمة التي جنتها على نفسها حين ركبت سفينة التحالف لبلوغ المراد التوسعي. كما أغفلت عملية تقوية دفاعاتها الطبيعية والصناعية وتحيينها حتى تصمد في وجه النشاط التخريبي الهلالي ، ومن أوجه ذلك التفريط: إهمالها دعم تحصينات القلعة وتفعيل مناعتها بعد نقل العاصمة منها إلى بجاية.

- أمام ضعف السلطة المركزية الحمادية نازعها بنو هلال الحكم على اقليم المغرب الأوسط حتى بلغ الأمر أن تدفع السلطة الضريبة للعرب خطبا لودهم وتأمينا لرعيتها ،

67- أنظر: المصدر نفسه ، ص 254-255 ، بكوش ، المرجع السابق ، ص68.

وأجبروها على توقيع معاهدة السلام تقضي باحتفاظ بني حماد بالمدن والحواضر وانفراد العرب ببسائط الأرياف والقرى.

- كانت موقعة سبيبة الشرارة التي أشعلت نار التخريب الهلالي ونقطة التحول في علاقة العرب مع السلطة الحمادية ، فقبل هذه الموقعة كانت يد العرب ممسوكة عن التخريب وبعدها أطلقوها في النهب والإفساد.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن أبي دينار محمد ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تح ، محمد شمام ، تونس: المكتبة العتيقة ، 1871.

2. ابن أبي الضياف أحمد ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان ، ج1 ، تح ، لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار ، تونس: الدار التونسية للنشر ، 1396هـ-1976م.

3. ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج8 ، راجعه وصححه ، محمد الدقاق ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ط4 ، 2003م.

4. ابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تح ، عبد الحليم عويس والتهامي نقرة ، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع.

5.ابن الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، مج1 ، تح محمد غنان ، القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ط2 ، 1973.

6. ابن خلدون عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ج6 ، ضبطه ، خليل شحادة ، راجعه ، سهيل زكار ، بيروت ، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1421هـ/ 2000م.

7. ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، تح ، ممدوح حسن ، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

8. ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج1 ، تح ، ج-س. كولان وإ. ليقي بروقنسال ، بيروت ، لبنان: دار الثقافة ، ط3 ، 1983.

9. أبو ضيف عمر: القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982.

10. الإدريسي الشريف ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ج1 ، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، 1414هـ/1994م.

11. البكري عبيد الله ، المسالك والممالك ، مج2 ، تح ، جمال طلبة ، بيروت ، لبنان: دار الكتب العلمية ، 2002م.

12. التجاني أحمد ، الرحلة ، قدم لها ، حسن حسني عبد الوهاب ، ليبيا-تونس: الدار العربية للكتاب ، 1981م.

13. الحموي شهاب الدين ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ، لبنان: دار صادر ، 1397هـ/ 1977م.

14. العربي إسماعيل ، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1980.

15. العروي عبد الله ، مجمل تاريخ المغرب ، ج2 ، لبنان: المركز الثقافي العربي ، بيروت ، .1994
16. الغنيمي عبد الفتاح ، موسوعة المغرب العربي ، مج2 ، القاهرة: مكتبة مدبولي ، 1414هـ/1994م.
17. القلقشندي أحمد ، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، تح: إبراهيم الأبياري ، بيروت: دار الكتاب اللبناني ، 1980م.
18.المراكشي عبد الواحد ، وثائق المرابطين والموحدين ،تح ، حسين مؤنس ، مصر: مكتبة الثقافة الدينية ، 1997.
19. برانشفيك روبار ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م ، ج1 ، ترجمة ، حمادي الساحلي ، بيروت ، لبنان: دار الغرب الإسلامي ، 1988.
20. بعيزيق صالح ، بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية ، تونس: أطروحة دكتوراه ، 1996.
21. بكوش فافة ، الهجرة الهلالية ببلاد المغرب الاسلامي خلال ق5هـ/11م ، مجلة القرطاس ،ع7 ، 2018.
22. بن الذيب عيسى ، الحواضر والمراكز الثقافية في الجزائر خلال العصر الوسيط ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أوّل نوفمبر1954 ، الجزائر ،.2007
23. بن زاوي طارق ، استقلال المعز بن باديس الزيري عن الدولة الفاطمية (406-454هـ/1016-1062م ، جامعة الجزائر: رسالة ماجستير ، 2009م.
24. بوداود عبيد ، مساهمة علماء القلعة في الحياة الفكرية ببجاية خلال القرن السابق الهجري (13م) ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد العاشر ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، 1430هـ-2009م.
25. بورويبة رشيد ، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، الجزائر: الطباعة الشعبية للجيش ، .2007
26. بورويبة رشيد وآخرون ، الجزائر في التاريخ 3 العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1984.
27. بوطارن مبارك ، تطور العمران الإسلامي حواضر المغرب نموذجا ، أطروحة دكتوراه ، الجزائر: معهد الآثار ، الجزائر ، 2006.
28. بونابي الطاهر ، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير ، الجزائر: معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1420هـ/2000م.
29. جورج مارسيه ، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى ، ترجمة ، محمود هيكل ، الإسكندرية: مطبعة الانتصار ، .1999
30. حسن محمد ، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، تونس ، .1999
31. حسن علي ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين ، ، مصرك: مؤسسة الخانجي.
32. خالدي عبد الحميد ، الوجود الهلالي السليمي في الجزائر ، الجزائر: هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، 2007.

33. خلفات مفتاح ، علماء زواوة والإرث الثقافي القلعي ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد10 ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، 1430هـ/2009م.
34. روجي ادريس ، الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م) ، ج1 ، ترجمة ، حمادي الساحلي ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، 1992.
35. شبيرة شميسة ، التحولات الاجتماعية في المغرب الأوسط في ق5هـ/11م ، مجلة القرطاس ،ع5 ، 2017.
36. شريط عبد الله وأبو القاسم محمد كرو ، عصر القيروان ، تونس: دار المغرب العربي ، 1973.
37. عبد القادر المشرفي الجزائري ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر ، تح ، محمد بن عبد الكريم ، بيروت ، لبنان: منشورات دار مكتبة الحياة.
38. عمارة علاوة ، الحفريات الأثرية بالحاضرة الحمادية الأولى بين الذاكرة والتاريخ ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد التاسع ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، 1429هـ/2008م.
39. عمارة علاوة ، الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، ع4 ، جامعة الأمير عبد القادر ، قسنطينة ، 1425هـ/2004م.
40. عمارة علاوة ، الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد 10 ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، 1430هـ/2009م.
41. عمارة علاوة ، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي ، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ، 2008.
42. عويس عبد الحليم ، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع ، 1991م.
43. كحالة عمر ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ج2 ، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1997م.
44. مؤنس حسين ، تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي ، مج1 ، بيروت ، لبنان: العصر الحديث للنشر والتوزيع ، 1412هـ /1992م.
45. مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، تعليق ، سعد زغلول عبد الحميد ، المغرب: دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، العراق ، ودار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، ط 2 ، 1986.

المراجع باللغة الأجنبية:

46. Contribution a l'étude de la céramique musulmane , les poteries faïences de la Qal'a des Beni Hammâd (XI^{ème} siècle, Constantine, 1913.
47. GSELL. S – MARÇAIS.G -CYVER , Histoire d'Algérie, Paris, 1929.
48. LUDWIG Salvadore Von Habsburg- Toskana : Bougie perle l'Afrique do nord, traduit de l'allemand par, AhcéneAbdelfettah, CNRPAH, Alger, 2005.

49. MARÇAIS Georges, Algérie Médiévale monuments et paysages historiques, arts et métier graphiques, Paris.
50. MARÇAISGeorge, Algérie Médiévale monuments et paysages historiques, arts et métier graphiques, Paris.
51. SOURDEL Dominique, Histoire des arabes, cinquième édition, paris, 1994.